دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	التداولية و تحليل الخطاب
المصدر:	مجلة الخطاب
الناشر:	جامعة مولود معمري تيزي وزو - كلية الآداب واللغات - مخبر تحليل الخطاب
المؤلف الرئيسي:	الجوة، أحمد
المجلد/العدد:	ع8
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2011
الشهر:	يناير
الصفحات:	167 - 182
رقم MD:	650219
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الخطاب اللغوي، البلاغة العربية، النقد اللغوي، التحليل اللغوي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/650219

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

التداولية وتحليل الخطاب

أ.د. أحمد الجوة

جامعة صفاقس –تونس–

مدخل: في مدارات البلاغة وتحليل الخطاب

البلاغة فن عريق صاحب نشاط الإنسان في حياته منذ أقدم العصور وكان أداة الإقناع والحجاج لدى قدماء اليونان وسبيلَ الخطباء والسوفسطائيين الذين فكروا في سياسة المدينة وبناء أنساق التفكير وطرائق الاحتجاج على هذه الأنساق. والبلاغةُ في حضارة العرب طريقة في أداء الأقاويل الشعرية وفي تأليف المنظوم والمنثور بها تأدت أنماط القصائد وبوجوهها وفنونها استدل النقاد على جودة الشعر والنثر ومازوا فحول الشعر وصنفوا الشعراء طبقات. ولئن تحكمت الذائقة الفردية في أعمال النقاد والعلماء بالشعر وفي الانتصار لشاعر دون آخر، فإن ما أوجده البلاغيون العرب من تسميات واصطلاحات لدراسة المدونة الشعرية بصورة أخص ومن تناول للخطب يقوم دليلا على كثافة الجهود التي بذلوها في تعقب الظاهرة الإبداعية، وقد يكون مفهوم "النظم" الذي شكله صاحب "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" من أقوى المتصورات البلاغية مضاهاةً لما تولد في التفكير البلاغي والنقدي الحديث من مصطلحات استرفد أصحابها التحليل اللساني وأفادوا في بناء البلاغة الجديدة مما تحقق في علوم اللسان. وحين واجهت البلاغة العربية القديمة "الحدث القرآني" وتجاوزت البحث في النص الدنيوي إلى النص المقدس اختطت لنفسها سبيلا جديدا فكانت عديد المصنفات في مباحث الإعجاز أمارةَ اقتدار هذه البلاغة على البحث في الكلام الإلاهي وعلى الارتقاء بهذا الفن إلى ذُرى سامية.

ولئن أُوخذت البلاغة العربية أحيانا بأنها تقتصر على البحث في الجزئيات دون الكليات، وبأن أحكامها معيارية، وبأن مادة البحث تتكرر في مصنفات البلاغيين دون ابتكار وتجديد فإن استصفاءَ ما تضمنته هذه التصانيف في مؤلفات الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني والقاضي عبد الجبار وحازم القرطاجني يؤكد ما بذله البلاغيون ونقاد الشعر والإعجازيون من جهود محمودة في الإلمام بالظاهرة الأدبية وفي استخلاص قوانين الخطاب الدنيوي والمتعالي وفي تفكيك الآليات التي بها يتشكل وبها يتقبل.

وليس ما أوخذت به البلاغة العربية حكما مقصورا عليها ودليل قصور فيها. إن البلاغة الغربية الكلاسيكية التي توارثتها أوروبا أزمنة بعد هجرتها إليها من بلاد اليونان حل بها ما حل ببلاغة العرب من تنميط للصور ومن تكرار للأفكار ومن تبسيط لبعض المتصورات الكبرى من قبيل المحاكاة والاستعارة وسائر وجوه المجاز.

في مدارات الخطاب وتحليل الخطاب

ليس الحديث في الخطاب مصطلحا حديثا تختص به اللسانيات وفلسفة اللغة ففي التراث اللغوي والأصولي العربي القديم أفكار مهمة يتحدد بها الخطاب ولعل أبسط تحديد للخطاب ما تضمنه "معجم مقاييس اللغة" لابن فارس وفيه تعريف الخطاب بأنه الكلام المتبادل بين اثنين. وما ورد في كتاب العين للخليل بن أحمد ومحصله أن الخطاب هو مراجعة الكلام. وأما الخطاب "في الوعي البياني والأصولي" فهو جنس خاص من الكلام ولهذا عرف بدر الدين الزركشي[1] الخطاب بأنه "الكلام المقصود منه إفهامُ من هو متهيئ للفهم"، فليس الخطاب إذن كلاما سائبا وإنما هو كلام له مقصدية وهو يقتضي اللفظية أو التلفظية أي أن يكون كلاما جاريا بين طرفين ويقتضي التواضعَ والتعاقدَ بينهما. وقد تبسط علماء الأصول في الإبانة عن الخطاب وعن شروطه لارتباطه بالعقيدة والعبادات ولهذا قسموا الخطاب الإلاهي إلى **خطاب التكليف** (وقوامه لغة إنشائية طلبية: الأمر –النهي –الإباحة ومداره الأحكام الخمسة: الوجوب –التحريم – الندب –الكراهية – الإباحة) وإلى **خطاب الوضع** أو خطاب الاختيار على نحو ما ورد في "الكليات" للكفوي.

وأما في الزمان القريب من زماننا فإن الثورة اللسانية التي بدأها فرديناند دي سوسير وما تلاها من جهود في اللسانيات بمختلف تفرعاتها (البنيوية –التوزيعية – التحويلية...) مما أتاح تشكل مفهوم الخطاب. ولعل المرور من لسانيات الجملة إلى لسانيات الخطاب مما أتاح النظر في الخطاب وفي تعميق دراسته.

لقد حدد أصحاب "قاموس اللسانيات وعلوم اللغة" الخطاب بقولهم : إنه اللغة وهي في حال الاستعمال كما أكدوا دور الذات المتكلمة في وجود الخطاب واعتبروه وحدة مساوية للجملة أو أكبر منها. كما اعتبروه سلسلة تكون رسالة لها بداية ونهاية. وقد ذكروا ما قام به إِميل بنفنيست وزاليس هاريس من جهود لتأسيس لسانيات الخطاب التي تُولي الباث والمتقبل أهمية في الخطاب. إن إدراج الذات المتلفظة في تحليل الخطاب اقتضى استدعاء اللسانيات النفسية واللسانيات الاجتماعية.[2]

لكن اللسانيات لم تكن الاختصاصَ العلمي الوحيدَ الذي تركز فيه تحليل الخطاب. لقد صار هذا المجالُ ميدانا لنشاط متنوع ينفتح فيه البحثُ على وسائل الإعلام والاتصال وعلى الإشهار التجاري وعلى الخطاب السياسي والفلسفي ولهذا وضع "ديان مكدونيل" كتابا عنوانُه "مقدمة في نظريات الخطاب" بحث فيه مواقف التوسير وحفريات المعرفة عند فوكو وقد تناول فيها خطاب السلطة وأجهزة العقاب والقمع[3].

وإذا كانت بعض العلوم قد تأسست على يدي عَلَم معروف صار العِلم مخصوصا به على نحو ما كان عليه الأمر في اللسانيات الحديثة مع سوسير وفي علم النفس التحليلي الذي أسسه فرويد وفي الأسلوبية التي وضع قواعدها شارك بالي (Bally) فإن ما صار يعرف بتحليل الخطاب مجال واسع وجامع لتيارات منحدرة من أوساط علمية مختلفة

لها اتصال بالتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس التحليلي وفلسفة اللغة. والحقيقة أن ما صار يعرف بالمدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب كان لها إسهام بارز في نشأة تحليل الخطاب خاصة مع ميشال فوكو ومن أبرز المباحث المتولدة من تحليل الخطاب نذكر تحليل المحادثة في الولايات المتحدة الأمريكية وقد تأثر أصحاب هذا الاِتجاه بإحدى مدارس علم الاجتماع التي اهتمت بدراسة الأعراق (L'ethnométhodologie)، ونذكر أيضا ما صار يعرف بالتداولية التي أضافت إلى المكون التركيبي والدلالي مكونا ثالثا هو المكون التداولي.

إن هذا التشعب الذي صار عليه تحليل الخطاب أمر أكده مؤلفا كتاب تحليل الخطاب. ومما ورد في مقدمته قولُهما "لقد أصبح لمصطلح تحليل الخطاب استعمالات عديدة تشمل مجالات واسعة من الأنشطة. فهو يستعمل مثلا للحديث عن أنشطة تقع على خط التماس بين دراسات مختلفة كاللسانيات الاجتماعية واللسانيات النفسية واللسانيات الفلسفية واللسانيات الإحصائية (...) فعلماء اللسانيات الاجتماعية مثلا يهتمون خاصة ببنية التفاعل الاجتماعي كما يتجلى في الحوار (...) أما علماء اللسانيات النفسية فيتجه اهتمامهم إلى قضايا تتصل باللغة والإدراك (...) وهم يتميزون باستعمالهم منهجية دقيقة استنبطوها من علم النفس التجريبي (...) ويهتم فلاسفة اللغة من جهتهم واللسانيون الشكلانيون كذلك بالعلاقات الدلالية القائمة بين أزواج من الجمل وخصائصها النظمية كما يهتمون أيضا بالعلاقات بين الجمل والواقع (...) أما علماء اللسانيات الإحصائية فإنهم يوجهون اهتمامَهم إلى معالجة نماذج خطابية تفرض عليهم طبيعة منهجهم أن يختاروها من بين النصوص القصيرة المستعملة في سياقات محددة جدا"[٤].

التداولية ومساهمتها في نشاطات تحليل الخطاب

ضبط "جاك موشلير" في مقدمة "القاموس الموسوعي للتداولية" تعريفا لهذا الاختصاص العلمي فقال "نُعرف التداولية بصفة عامة بأنها استعمال اللغة وذلك في مقابل دراسة النظام اللساني الذي يكون مدارَ اللسانيات تحديدا" ويضيف "موشلير" أن استعمال اللغة ليس محايدا في آثاره وفي عملية التواصل وفي النظام اللساني ذاته ،ولهذا فإن القرائن الزمانية والمكانية الدالة على الأشخاص لا يمكن تأويلُها إلا في السياق الذي تم التلفظ بها فيه. وقد أرخ "موشلير" للتداولية بأعمال فلاسفة اللغة أمثال جون أوستين وبول غريس وقد تحدثا في الأعمال اللغوية (speech acts) التي ينجزها المتكلمون لا لوصف العالم وإنما لإنجاز أفعال. وكان لأعمالهما قوي الأثر في دفع الأبحاث في مجالات فلسفة اللغة واللسانيات والمنطق وعلم النفس العِرفاني واللسانيات النفسية واللسانيات الاجتماعية والذكاء الاِصطناعي[٥].

وقد أثار "موشلير" في الفصل الختامي لهذا القاموس عددا من الأسئلة من قبيل : هل يتعين إلحاقُ التداولية بالعلوم الإنسانية أم بالعلوم التجريبية، وهل تكونُ التداولية قسما من أقسام اللسانيات، وهل تشترك مع اللسانيات في عدد من الأصول الاِبستمولوجية، وهل بإمكان التداولية الاِندماج في سيميائية احتمالية؟

ولما كانت التداولية ذات تعلق بعلم النفس المعرفي ممثلا في نظرية الملاءمة (Théorie de pertinence) وبعلوم التواصل وبلسانيات الخطاب وبقواعد المنطق والمحادثة، تعسر تقديم تعريف وافٍ ونهائي للتداولية، غير أن ذلك لا يحول دون قبول ما اقترحه "فيليب بلانشاي" من تحديدات للتداولية بأنها:

- جملة بحوث منطقية – لسانية ودراسة لاستعمال اللسان.
- دراسة استخدام اللسان داخل الخطاب، ودراسة القرائن الخصوصية التي تؤكد وظيفتَها الخِطابية.
- دراسة اللسان بما هو ظاهرة خطابية وتواصلية اجتماعية في الآن نفسه[٦].

ولعل تشعب المجالات التي تخوض فيها التداولية وتنوع الاختصاصات التي يدعي أصحابها الإنتماء إليها (الفلسفة التحليلية – المنطق – قواعد الإستدلال – طرائق التوجيه والإحتواء...) مما يفسر استخدام التسمية في صيغة الجمع عند الإنجليز (pragmatics).

والحقيقة أن جهودَ الباحثة كاترين كيريرات أوركيوني وخاصة في كتابها "تلفظ الذاتية في اللغة"[٧] قد أثمرت أفكارا قيمة سيكون لها كبير الأثر في الدراسات التداولية. لقد وقع التمييز بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي، وبين المعنى الصريح والمعنى الضمني كما وقع الاهتمام بالمقامات والسياقات التي تتحقق فيها الملفوظات. ومن ذلك أن "أوستين" و "سيرل" تناولا المعنى الحرفي والدلالة من جهة المقاصد التواصلية ومن زاوية التفاعل الكلامي (L'interaction verbale) وأن سيرل قد عرف ما هو ضمني (implicite) بما هو شرط سياقي لنجاح العمل اللغوي وقد كانت مسألة المقصدية (l'intentionnalité) هي التي أغنت البحث في الدلالة. وقد عرفت أوركيوني الكلام الضمني بما هو كتلة المعلومات التي يمكن للخطاب أن يحتويها لكن تحقيقها في الواقع يبقى رهينا بخصوصيات السياق التلفظي. وأما السياق فقد حدده التداوليون بمجموع الشروط الطبيعية والثقافية والاجتماعية التي يتنزل فيها ملفوظ أو خطاب واعتبروه شاملا للمعطيات المشتركة بين الباث والمتقبل.

ولا يمكن تحديدُ السياق الذي يتحقق فيه التفاعل الكلامي تحديدا دقيقا دون الاستعانة بالمشيرات (Les déictiques) التي ترتبط بأنماط الإحالة وبالمحال عليه (le référant) خلال عملية التلفظ. وقد حدد كليبير (G. Kleiber) المشيرات بأنها عبارات تحيل على محال عليه يكون التعرف عليه ضرورة وذلك بواسطة الجوار الزماني والمكاني الذي تظهر فيه المشيرات وحددتها أوركيوني بأنها الوحدات اللسانية التي يقتضي اشتغالها الدلالي –الإحالي أخذَ عددٍ من العناصر المكونة لوضعية التواصل بعين الاعتبار وذلك من قبيل الدور الذي تقوم به فواعل التلفظ في الملفوظ ومن قبيل الوضعية الزمكانية للمتلفظ وللمخاطَب بصورة احتمالية. وتشمل المشيرات الضمائر وأسماءَ الإشارة وجملة القرائن التي تتحدد بها أطراف التكلم وسياقاته. فحين قال أبو الطيب المتنبي :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

يكون العمل القولي منسوبا إلى صاحبه مرتبطا بالسياق الذي أنشد فيه أبو الطيب أبياتَ قصيدته وتكون متعلقاتُ ضمير المتكلم المفرد مخصوصة بسياق مجلس سيف الدولة الحمداني متجاوزة إياه إلى سياقات مفاخرة الشعراء بملكة الشعر، ويكون لهذا الملفوظ الشعري معنى حرفي غيرُ مقصود ومعنى ضمني هو المقصود محصُلُه تباهي المتنبي بقوة شاعريته وبز من رام انتقاصا منها ولومُ الأمير الحمداني الذي جفا الشاعر لما أنصت لأقوال الواشين من الشعراء والنقاد الذين كانوا حاضرين زمن إلقاء القصيدة.

وحين قال الشابي :

ففي الأفق الرحب هول الظلام وقصفُ الرعود وعصف الرياح

تأمل هنالك أنى حصدتَ رؤوس الورى وزهور الأمل

يكون ملفوظه الشعري شاملا أكثر من مشير مكاني (الأفق الرحب – هنالك أنى) وتكون بعض هذه المشيرات متبوعة بمنعوت مصطبغ بذات المتكلم المبشر بزمان الثورة تطلبا للحرية والاستقلال. وأما المشير المبهم (هنالك) فهو يحيل على موقف التحذير والتوعد للمستعمر ولا يتعلق بمكان مخصوص في تونس زمن نظم القصيدة وإنما تصير دلالتُه على المكان مطلقة غير محيلةٍ على مرجع مكاني مضبوط ولهذا تتجدد هذه الدلالة متكررة بتكرر السياقات التي يقال فيها هذا البيت الشعري.

وكما يتحدد السياق وأطراف التخاطب بالسياقات والمقامات التي تتنزل فيها الملفوظات تكون تداولية الخطاب متحددة أيضا بالروابط التداولية (Les connecteurs) وهي قرائن الوظائف التفاعلية (des marqueurs de fonctions interactives) من قبيل إذن، لكن، هكذا، رغم ذلك ،وبالفعل، وأخيرا وتنقسم هذه الروابط إلى :

- حجاجية : لأن، بما أن –كما – وبالفعل – على الأقل
- نتائجية : (consécutifs) : مثلما – وبالتالي – هكذا..
- حجاجية مضادة (Contre-argumentatifs): لكن–غير أن –إلا أن –رغم أن..
- تقويمية مُعادة (réevaluatifs): وبالجملة –وبالتالي –وأخيرا –وعلى كل حال –وباختصار...

وتتيح جميع هذه الروابط بلوغ تأويلات للنصوص يمتنع أمرُها على المؤول دون مساعدة التحليل اللساني للروابط، كما تتيح تمثيلا لبنية الخطاب بإظهار العلاقات التفاعلية بين أطرافه.

تحليل تداولي لقصيدة "أبد الصبار" لمحمود درويش

النص بعنوان "أبد الصبار" وهو ملفوظ وجيز يحيل على مرجع طبيعي يمثله النبات الشوكي المعمر ويوحي بديمومة المقاومة والنضال وهذه الدلالة الضمنية كثيرة الدوران في قصائد الشاعر إذ كثيرا ما يتم العبور فيها من الدلالة التصريحية والتعيينية إلى الدلالة الإيحائية.

يرتبط الملفوظ الشعري في هذه القصيدة بذات المتكلم على أساس ما يمكن اعتباره سيرة شعرية لأن عددا من قصائد هذه المجموعة (لماذا تركت الحصان وحيدا) تستعاد فيها أمشاج من حياة الشاعر وأهله وتُستحضر بالتذكر مفاصل في قصة التهجير الذي سلط على سكان القرى الفلسطينية وخاصة في قطاع الجليل[٨].

مشترك الخطاب الشعري في القصيدة

تكونت القصيدة من ٤٦ سطرا شعريا تفاوتت أحجامُها وتخللتها وقفاتُ بياض فصلت بينها فبدت فراغات نصية تدركها العينُ بيسر. ومما يتأكد به مشترك الخطاب الشعري فيها أن السياقات الخطابية متماثلة البناء إذ يتصدرها سياق قصصي يقدمه متكلم –سارد يستعيد فيه أحوال الفارين من بطش المداهمين لسكان القرية لإجبارهم على إخلاء أرضهم ويتضمن القص مقطعا حواريا يكون الحوار فيه منقولا على لسان الأب ويكونُ مدارهُ متغيرا من سياق تلفظي إلى آخر.

هكذا تتقوى البنية الدائرية المتعاودة في السياقات التلفظية الأربعة فلا يكون تعاود البناء في هذا الشعر متحققا بانتظام التفعيلة وتجاوبِ صوت القافية من بعيد المسافة النصية[٩].

تحليل تداولي للسياقات التخاطبية

السياق التخاطبي الأول

ويمتد من بداية القصيدة إلى آخر السطر الشعري العاشر ويقوم فيه تحاورٌ بين الابن السائل عن وجهة الرحلة والأب المجيب عن سؤال الابن. والعلاقةُ الرابطة بين المتخاطبين في هذا السياق علاقة دموية وأما زمان التلفظ فهو الحاضر وإن كان مستعادا بالتذكر لأن درويش ينقل ما كان قد جرى زمن التهجير من قرية البروة في فلسطين. ولا تبدو إجابة الأب ملائمة لسؤال الابن الذي يروم معرفة المكان المقصود فجهة الريح ليست مشيرا مكانيا تتحدد به وجهة معلومة للفرار من بطش المهاجمين للسكان في تلك القرية. إن جهة الريح تمثل إجابة غائمة وتحديدا وهميا لمكان الوصول بما أن

الريح قوة تجري في كل الاتجاهات وترمز إلى خطر الاقتلاع يصيب الأشجار ويلحق الأضرار بالناس مثلما ترمز إلى ثورة الطبيعة وإلى التدمير.

والحقيقة أن ملفوظ الأب في جوابه عن سؤال الابن قد اصطبغ بذاتية قوية وصار ملفوظا تشبع بذات الابن السائل الذي أضفى على إجابة الأب مواقفه من المصير الذي صار يتهدد السكان المهجرين من أرضهم.

إن الشاعر الذي استعاد حادثة التهجير زمن وقوعها لم يستعدها بوعي التاريخ الذي وقعت فيه وإنما استحضرها بوعي الفلسطيني الذي عاين أحوال قضيته الوطنية واستبان له المأزق الكبير الذي آلت إليه. فاستعارة "جهة الريح" في ملفوظ الأب مؤشر على حالة الاضطراب التي استبدت به وعلى عنف ما أُلحق بالمهج رين من بطش حال دول استبانتهم وجهة تحميهم من الملاحقة. وهذه الاستعارة التي صاغها الشاعر بلسان الأب عمل تقويمي أنجزه درويش بعد سنوات كثيرة من حاضر الحادثة وبعد خفوت النزعة التحريضية في سابق قصائده. لقد أُتبع عمل التذكر بفعل التأمل وإبداء المواقف من مآل الحادثة المروعة.

يتحول الملفوظ بعد السؤال والجواب إلى ملفوظ سردي يتولاه صوت يبدو ثالثا ومعاينا لهذه الهجرة الإضطرارية لكنه في حقيقة الأمر صوت المتكلم الأول وقد تحول صوتا سرديا عارفا بأطوار الصراع الذي دار زمن حملة نابليون بُونابرت على مصر وفلسطين ولهذا ترد في ملفوظه الأسماءُ المحيلة على مراجع التاريخ والجغرافيا. يتضمن المقطع السردي في هذا السياق التلفظي الأول حوارا منقولا أو غير مباشر يصير فيه الأب محفزا للابن مقويا عزيمته بتكرار صيغة الأمر مرتين (لا تخف – لا تخف من أزيز الرصاص) موجها إياه بحثا عن الخلاص من خطر الموت، مُقدما له خطة النجاة مؤكدا له تحقق الخلاص مستشرفا عودة قريبة إلى القرية.

إن سلسلة الأعمال التوجيهية التي قام بها الأب من خلال الحوار المنقول على لسان الابن تفسرها خبرةُ الأب ومعرفتُهُ بمسالك الطبيعة التي كانا يتحركان داخلها بما أنه فلاح وصاحب أرض يستميت في الدفاع عنها وقد دل أمرُه الابنَ بالالتصاق بالتراب على هذا التشبث بالأرض والانغراس فيها. واستعادةُ الملفوظ للمرجع التاريخي الخاص بحملة بونابرت ودمجُ التاريخ البعيد بالتاريخ الحاضر تحريضٌ غيرُ مباشر على ضرورة التصدي للمحتل وصد كل دخيل على الأرض. وتكرار صيغة الفعل المنسوب إلى متكلم جمعي (سننجو –نعلو –نرجع) يقوي استشراف الخلاص من سياسة التهجير.

السياق التلفظي الثاني

ويمتد من السطر الحادي عشر إلى السطر الثاني والعشرين ويتعاود فيه أسلوب السؤال والجواب وتتكرر المحاورة بين الابن والأب لكن مدار السؤال يتغير إذ يصير مخصوصا بساكن البيت بعد مغادرته ويحافظ الملفوظ في هذا السياق

على صبغته الحميمية بالنداء الذي تتأكد به الصلة الدموية بين المتخاطبين. ومثلما كان جواب الأب في السياق الأول غائما منفتحا على التأويل غير محدد لمكان الوصول يجيء جوابه في هذا السياق غير متعي ن. فحين سأل الابنُ عن ساكن البيت العائلي بعد رحيلهم عنه يرد جواب الأب منحرفا عن وجهة السؤال وعن موضوعه (سيبقى على حاله مثلما كان يا ولدي). وهذه الإجابة التي تبدو مراوغة تبط ن موقفا للأب أساسُه أن ملكية البيت لن تتحول إلى غيره وهذه دلالة غير تصريحية تؤكدها صيغة الفعل والمشير الدال على الوضعية (سيبقى على حاله مثلما كان).

يعاود بناء الشعر على السرد ظهوره في هذا السياق فيكون الِانتقالُ من سياق الحضور بين المتاخطبين إلى سياق القص وسرد الأفعال وخاصة ما ارتبط منها بالقرينة الدالة على ملكية البيت (المفتاح) والمؤكدة ما صرح به الأب من يقين المحافظة على البيت. والحقيقةُ أن هذا الفعل الذي ورد متبوعا بأسلوب التشبيه يؤكد ذلك التيقن من جهة أولى ويخفي موقفا مُضمَرا يكذِب تيقن الأب واطمئنانه إلى حقيقة المفتاح لأن ضياع القرية وبيوت السكان فيها سيكونان حقيقة وأمرا واقعا سيفرضه المحتل الذي هجر السكان من بيوتهم. إن ما قام به الأب وقد استعاده الصوت السردي باللاحقة السردية كأنما يؤكد التعارض بين الظاهر والباطن ويؤول إلى تكذيب ما عبر عنه الأب من يقين الاحتفاظ بملكية البيت.

ويتخلل هذا المقطع القصصي في هذا السياق التلفظي حوار منقول تنقلب فيه الأدوار بين المتخاطبين إذ يصير المتكلم (الابن) مخاطَبا ويصير المخاطب الأول (الأب) متكلما ويطول ملفوظه بسلسلة من الأقوال التوجيهية ومن الموجهات التعبيرية (Modalités d’expression). لقد مثلت صيغة الأمر (تذكر) ما يشبه التوجيه الإلزامي (Modalité injonctive) باعتبار ما للأب من معرفة بحقائق الأمور وبمجريات الأحداث خاصة حين تظهر المخاطر والعوائق وقد دلت عليها قرينة "سياج من الشوك" أمارة حاجز طبيعي واجهه الفارين من القرية وإيحاءً بما سيتعرض له الفلسطينيون المشردون من مكائد التاريخ وملهاة الجغرافيا. ويقوم الأب في هذا السياق بما قام به سابقا من تحفيز على تجاوز الوضعية المأزقية وذلك باستعارة وقائع التاريخ النضالي وباستخدام الصيغة الاستعارية الموحية بالصراع بين الاحتلال والمقاومة (سيرة الدم فوق الحديد).

ولئن بدا التوجيه الإلزامي الصادرُ عن الأب باستعادة البطولة الفردية النادرة التي أبداها الفلسطيني في الدفاع عن أرضه توجيها متناسبا مع طبيعة هذا المخاطِب بحكم السن والتجربة والخبرة بالحياة فإن هذا الملفوظ الذي استعادَه الشاعر المتكلم بهذه القصيدة هو في الحقيقة منطوق الشاعر الذي تحمل مسؤولية التعبير بالشعر عن قضية المجموعة التي ظل دائم الانتماء إليها ودائم التنويع في الصياغات الدالة على القضية الوطنية. فلئن أوكل درويش التوجيه الإلزامي للأب فإنه ظل صاحبَ هذه الوظيفة لكنه يقوم بها بما يشبه التخفي محافظة منه على طبيعة الشعر وصونا له من التصريح ومن الكلام

المباشر. وسيكون هذا التخفي وراءَ صوت الأب في لاحق السياقات أمرا مؤكدا بما يبديه كاتب الشعر من معرفة بدقائق التاريخ وبخفايا النصوص التي يتشربها كلامُه الشعري.

وليس قص ما كان جرى من مقاومة للإنجليز مجرد إخبار وإنما هو دفعُ المخاطَب في سياق هذه المحاورة الأليفة وفي السياقات المتجددة بالقراءة إلى أن يصنع بالكلمات أشياء وأن يكون لهذا القص عملٌ إنجازي (performatif).

السياق التلفظي الثالث

يبدأ هذا السياق بالسطر الثالث والعشرين وينتهي بالسطر الثالث والثلاثين وقد منحتْ جملةُ الإنشاء فيه هذه المجموعةَ الشعرية عنوانَها الواسمَ لها. ويظل المتخاطبان فيه استمرارا لأطراف الحوار في السياقين السابقين. فالسائل هو الابن والمجيبُ هو الأب وقد مثل ملفوظه تفسيرا للسؤال وتبريرا لترك الحصان وحيدا. وهذا العمل اللغوي المزدوج من جانب الأب قام بتوسيع التبرير وذلك بالانتقال من وضع خاص بهذه العائلة إلى وضع عام يشمل سكان البيوت. ولئن أحال الحصانُ على طبيعة العائلة الفلاحية أو القروية فإن هذا الحيوان ارتبط بمعانٍ ضمنية منها الفحولة والكر والفر في المعركة والفوز في السباق وقد استعار ملفوظ الأب لهذا الحيوان وظيفة غير مألوفة هي إيناس البيت.

يستعيد الصوت السردي بعض المشاهد الموحية بما حف من مخاطر هددت هذين الفارين من بطش التهجير وقد اصطبغ الخطاب الشعري فيها بالمجاز والإيحاء. إن المشيرات الزمانية والمكانية تُعينُ أجواءَ موحشة يستعيد السارد بعضَ ملامحها الهاربة من نشاط الذاكرة ويشحنها بمشاعر الخوف والتوجس من الأخطار المحدِقة بالمهجرين يتسللون خفية عن ملاحقة جنود الاحتلال ولهذا كانت الصياغات المجازية راسمة ألوان ذلك التوجس. ولئن استدعى الصوت المتكلم الحدث زمنَ وقوعه فإنه عبر عنه بالوعي القائم للشاعر وهو يبدي أحكاما تقويمية لما جرى زمن التهجير. إن الجملة الأولى والجملةَ الثانية في كلام الشاعر –السارد لا تكتفي برصد الحدث زمنَ وقوعه وإنما تنقله من خلال وعيها به بعد سنوات كثيرة عاين خلالها المتكلم نتائج التهجير وتحول الفلسطينيين إلى شتات سكان موزعين على بقاع العالم ومشردين داخل أوطان ليست أوطانهم. فالسارد إذن لا يعاين حدثا مرجعيا فقط بل يتأمل آثاره ويعاني ما ترتب عنه من أوجاع ومكابدة.

يردَف الكلامُ السردي بحوار منقول على لسان الأب يستحث الابنَ على التجلد وعلى احتذاء سلوك الجد المقاوم، وقد عاد التوجيه الإلزامي بصيغة الأمر المتكررة (كن قويا –اصعد معي تلة السنديان الأخيرة –فاصمد معي لنعود...) وذلك قصد تحقيق عدد من الأعمال الإنجازية التي يؤملها الأبُ الموجه لسلوك الابن.

لقد اعتمد التحريض والتحفيز على الصمود في وجه التهجير والإقتلاع من أرض فلسطين نوعين من الحجج : الحجة العائلية وقد جسمها الجد المقاوم، والحجة التاريخية المرتبطة بالجيش الإنكشاري وهزيمته، وكان ترتيبُ الحجج لمزيد

الإقناع بسلوك المقاومة يعتمد الانتقال مما هو ذاتي عائلي إلى ما هو تاريخي شامل ومعلوم أن حجة التاريخ هي الحجة الأقوى والأقدرُ على الإقناع وتوجيه السلوك الفردي والجماعي.

وتستوقفُ الناظرَ في هذا السياق من جهة المشيرات والمراجع التي يحيل عليها الملفوظ صياغات عُدت ذواتم (subjectivèmes) وهذا من قبيل عواء ذئاب البراري على قمر خائف، وصعود تلة السنديان الأخيرة، وبغلة الحرب. إن الملفوظ الأول يحيل على أجواء المكان الذي كان إطارا لفرار المهجرين ولكنه تشرب مجازا فيه إيحاء بطبيعة الطرفين المتصارعين على أرض فلسطين. فالاستعارة فيه دالة على الصراع بين طرف متوحش وطرف مسالم وعلى قساوة أعمال التهجير التي سُلطت على السكان الذين كانوا آمنين. والملفوظ الثاني الذي يحيل على طبيعة الغطاء النباتي في الأرض محل التنازع يوحي بأمل الخلاص وبأحقية تملك هذه الأرض وهذا استنادا إلى ما يرمز إليه شجر السنديان من ترسخ في عمق الأرض ومن شموخ وارتفاع. وأما "بغلة الحرب" فملفوظ ينطوي على سخرية من انهزام الانكشاري الذي يبدل فرس الحرب بدابة لا علاقة لها بالوغى.

هكذا عدل الكلام في هذه الملفوظات عن الأداء المألوف وتشرب صياغات مجازية يبرز بها المتكلم ذاتَه ومواقفَه فتعلو ذاتيتُه في كلامه وينحو أداؤه للكلام منحى المجاز والاستعارة.

السياق التلفظي الرابع

ينبني على غرار السياقات السابقة بالسؤال يلقيه الابن وبالجواب يقدمه الأب وأما مدار المحاورة فهو على موعد العودة إلى القرية التي هجر منها السكان وكان الأب قد أكده في خاتمة السياق الثالث. ويمتد هذا السياق فيتكون من ثلاثة عشر سطرا شعريا فيكون بهذا الحجم النصي أطول السياقات التلفظية في هذه القصيدة.

وأول ما يبرز في جواب الأب ورود المعدل (modalisateur) "ربما" بعد أن كان تحديد موعد العودة لا تردد فيه (غدا) وبهذا المعدل ترتبط الذات المتكلمة بخطابها ويكون ملفوظُها غير نافِذ كليا ولهذا يكون الإثبات أو التصريح مقتصرا على علاقة واحدة من العلاقات التي تربط الذاتَ بخطابها[١٠].

إن التحول من التأكيد بالمشير الزمني (غدا) إلى التردد باستعمال المعدل (ربما) دليل على توزع المتكلم بين الوثوق وعدم الوثوق وعلى توجسه من مصير التهجير المسلط على السكان وسيكون الصوت السردي اللاحق بالسياق التحاوري بين المتخاطبين مقويا هذا التوجس ولهذا تحول الخطاب من الوظيفة الإحالية إلى الوظيفة الاستعارية التي عبر بها الصوت السردي عن تقويمه لما حصل بعد حادثة التهجير. إن هذا الملفوظ الذي أُجري على لسان الصوت السردي "وكان غدٌ طائش يمضغ الريح خلفهما في ليالي الشتاء الطويلة" مشبع مجازا وتقويما لما ترتب على الحادثة المرجعية التي أحالت عليها القصيدة والتي تشكل بها الخطاب الشعري في القصيدة. فعلاقة المنعوت بالنعت (غد طائش) ونسبة المضغ

إلى الريح والمشير الزماني (ليالي الشتاء الطويلة) كلها صياغات دالة على عمق انغراس المتكلم في ملفوظه. إنه لا يكتفي بنقل أطوار هذه الحادثة العنيفة على سبيل الاسترجاع والتذكر وهما عملان ذهنيان يحققهما نشاط الذاكرة وهي الملكة التي تحقق كتابة السيرة الذاتية الروائية والشعرية وإنما يغادر الزمان المرجعي الذي تأطرت فيه حادثة التهجير ويحل في زمان التأليف للقصيدة وقد أدركت الأنا في هذا الزمان مآزق هذه التجربة الحياتية التي عاشها المهجران وسائر السكان. إن البناء الاستعاري للصوت السردي الذي تخفى وراءَه صوت درويش ولابسه كل الملابسة بناء فيه إيحاءٌ بما آل إليه مصير المهج رين من أوضاع الشتات في أوطان مؤقتة كان فيها الفلسطينيون معرضين لأوضاع بائسة ولحالات من الملاحقة والاغتيالات، وليست استعارة "الغد الطائش يمضغ الريح خلفهما" سوى ملفوظ تقويمي يعبر به المتكلم عن توجسه الدائم من هذه الأوضاع التي عاينها منذ حادثة التهجير إلى الأوضاع اللاحقة بها حتى زمن التأليف لهذه القصيدة، بل كأن المكلم ينتابُه شعور بالندم الشديد للتفريط في أرض الوطن وقبول أوضاع الشتات التي فُرضت على الفلسطينيين رغم احتفاظ بعضهم بمفاتيح بيوتهم حجة قوية على حقهم في ملكيتها.

ومما يقوي هذا الشعورَ المأسوي بحال الشتات ما أورده الصوت السردي من فعل الاحتلال الصهيوني لمنازل السكان الفلسطينيين ومن إحالة غير مباشرة على تنكر المحتل لما جاء في وعد بلفور الذي أنشئت بمقتضاه دولة إسرائيل (عدم الاعتداء على السكان الأصليين في فلسطين). وهذا القص لما قام به جنود يهوشُع بن نون يتضمن إدانة للمحتل ولخرقِه ميثاق ولادة الدولة الإسرائيلية (١٩١٧) ولهذا لم تكن القلعة –وهي بناء عسكري للدفاع عن البلاد في أصل الأمور– دالة على مِنعة الدولة المحتلة وإنما حجة على تسلطها وظلمها.

يورد الملفوظ القصصي الممتد في هذا السياق أسماء عدد من الأعلام هم "يهوشع بن نون" وهو نبي المملكة الشمالية لبني إسرائيل وقد عاش قبل انهيارها في عام ٧٢٢ ق م واستغرقت خدمته طوال ٤٠ سنة فكان بذلك معاصرا للأنبياء عاموس وإشعيا وميخا[١١] ويعرف هذا النبي اليهودي بأنه قائد الحملة اليهودية إلى أرض كنعان ولذلك وازى السارد في المقطع القصصي بين التسلط الحربي قديما والغزو العسكري حديثا إبان حملات التهجير لسكان فلسطين بداية من سنة ١٩٣٦ وقبل هذا التاريخ أيضا.

ومن الإحالات المرجعية نجد درب "قانا"[١٢] وهي مدينة قديمة في منطقة الجليل بفلسطين وقد استعاد الشاعر – السارد هذا المرجع الجغرافي لتأكيد تأصل الفلسطيني في أرض فلسطين وتملكه التاريخي لها واستحقاقه بها حاضرا كما أن الإحالة على اسم هذه المدينة مساجلة خفية للدعاية الصهيونية التي تروج كلاما مفاده أن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض فتبرر بذلك احتلالَها لها.

وكما أحال الملفوظ الشعري على الشخصية اليهودية الضاربة في القدم وعلى المدينة الفلسطينية الدالة على عراقة التاريخ الفلسطيني، أحال أيضا على شخصية المسيح وعلى معجزته (تحويل الماء خمرا بعد نفاده في عرس أقيم بمدينة قانا) وعلى بعض تعاليمه وخاصة منها المحبة والفداء. والحقيقة أن الصوت السردي وهو يستعيد هذه المراجع يعقد ما يشبه المساجلةَ الخفية للدعاية الإسرائيلية ويقيم التعارض القوي بين التعاليم المسيحية الداعية إلى المحبة والسلام والدعاية الصهيونية التي تشرع للظلم والقتل بقوة السلاح. وهذه المساجلة للعدو الإسرائيلي تستند إلى عقيدة الحزب الشيوعي الإسرائيلي الداعية إلى بناء دولة ديمقراطية يتعايش فيها اليهود والعرب وهي عقيدة آمن بها درويش حين كان منتميا إلى هذا الحزب العلماني وكاتبا في جريدة "الاتحاد" الناطقة باسمه. وليس ذكر السارد تعاليم المسيح ومعجزته مرتبطا بنوع من التماهي بين سيرة المسيح المخلص الفادي وسيرة الشاعر النبي كما كان الأمرُ في نصوص الرومنطيقيين وإنما مثل إيراد ذلك دعوة ضمنية إلى البحث عن صيغة للتعايش وإلى نبذ العنف والقتل وردا ضمنيا على الدعاية الصهيونية التي لا تقدم الفلسطينيين إلا إرهابيين تتوجبُ مطاردتهم وقتلُهم. إن ما توارى خلف القص ليس مجرد تناص يبدو شكليا وإنما هو تناص يضمر خطابا سياسيا وحضاريا يوجهه الشاعر إلى ساسة إسرائيل والمسؤولين عن آلتها العسكرية الغاشمة وهم في الحقيقة من يحرص الشاعر على إيصال صوته إليهم علهم يعدلون مواقفهم ولهذا ليست الكلماتُ في هذا المقطع السردي الحافل بالإحالات نازعة إلى إظهار ثقافةِ المتكلم وتأكيد إفادتِه من النصوص المقدسة عددا من القيم والحقائق. إن المقصد التداولي لهذا الحيز القصصي في آخر القصيدة متعدد التوجيه : فالشاعر المتكلم الذي تلبس صوتَ والده يتوجه إلى أكثر من مخاطَب. إنه يقدم بطريقة خفية عقيدته السياسية القائمة على إمكان تعايش الشعبين على أرض واحدة، وهو يجادل غلاة الصهيونية الذين يرفضون رفضا قاطعا فكرة التعايش السلمي في أرض فلسطين، وقد يكون الشاعر أيضا مجادلا للفلسطينيين الذين عارضوا معاهدة أوسلو وكانوا متطرفين في رفض التعايش المحتمل.

تنتهي القصيدة بتعاود التوجيه الإلزامي يقوم به الأب عبر أفعال الأمر (تذكر – تذكر)، ويكون لكلامه وملفوظه ظاهرٌ وباطن، فالظاهر من كلامه صراع بين القلاع الصليبية وحشائش نيسان وأما القوة التوجيهية في ملفوظ الأب الذي مثل صوتُه في هذه القصيدة صوتَ الحق والحكمة ودليلَ الخبرة فهي تحقق عملا مقصودا بالقول هو التبشير واستشراف خلاص من المحتل رُمز له بالقلاع الصليبية التي تذكر بتاريخ الصراع بين المسيحية والإسلام. وأفعالُ الأمر مقصودٌ بها إنجازُ أفعال يستهدي بها الابنُ المخاطب بالتاريخ ووقائعه. والحقيقة أن استعارة الصراع بين القلاع الصليبية وحشائش نيسان وانتصارَ الضعيف على القوي تنطوي على بعض آي القرآن وعلى بعض أدبيات النضال الوطني التي تقدم الإرادة على القوة إذا هب المستضعفون للدفاع عن حقوقهم في التحرر والسيادة.

والمتحصل إجمالا من هذا التحليل التداولي لقصيدة "أبد الصبار" أن الابن والأب المهج رين من قرية البروة في فلسطين هما المتخاطِبان الدائمان وأن العلاقة الحميمية الرابطة بينهما تظل قائمة من بداية القصيدة إلى نهايتها. ولئن بدا

الابنُ هو السائل والمبادر بفتح الخطاب وبدا الأبُ مترددا في إجابته غامض الردود أحيانا فإن الصوت السردي الذي تنازعه هذان المتكلمان في القصيدة يظهر ألوانا من التعليقات على ما جرى في حاضر الحدث وعلى ما أعقب التهجيرَ من أحوال مأزقية ولهذا استعاد وقائع التاريخ وتعاليم الشريعة لينقل من خلالها أفكاره ومواقفه دون تصريح وإقرار مباشر.

لقد تردد في الملفوظ القصصي كلام ضمني ومهمت (implicite) وأضمر المتكلم السارد المواقفَ الداعية إلى النضال والصمود فكان الخطاب محققا الوظيفة الإنجازية للكلام دون تصريح وتحفيز مباشر يفقد بسببه الخطاب الشعري ما يتطلبه هذا الخطاب من تلميح وإيحاء.

لقد بدا التخاطب في هذه القصيدة مقتصرا على الابن والأب لكن أطراف التخاطب قابلة للتوسع لأن عملَ التأثير بالقول (L'acte perlocutoire) ليس يقتصر على هذين الفارين من القرية في الزمان الذي وقعت فيه الحادثة، وإنما يكون كل مهجر من فلسطين ومن الوطن عموما، ويكون عامة القراء مخاطبين معنيين بهذا الملفوظ ومحفزين محتملين.

الهوامش:

١- البحر المحيط في أصول الفقه، ج١، ص ٩٨.

٢- Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, sous la direction de Jean Dubois, Larousse ١٩٩٤, pp. ١٥١-.٢٥١

٣- ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ترجمة وتقديم دكتور عزالدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة ٢٠٠١.

٤- تحليل الخطاب، تأليف ج. براون وج. يول، ترجمة وتعليق د. لطفي الزليطني، د. منيرالتريكي، جامعة الملك سعود ١٩٩٧، ص ي.

٥ - Dictionnaire encyclopédique de pragmatique, Jacques Moeschler et Anne Reboul, Seuil, ١٩٩٤, p.p. ١٧-١٨.

٦ - Philippe Blanchet, La pragmatique d'Austin à Goffman, Bertrand Lacoste, Paris, ١٩٩٥, p. ٩.

٧ - Catherine Kerbrat - Orecchioni, L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Armand Colin Editeur Paris ١٩٨٠.

٨- قرويون من غير سوء، ص ٢٤ – ليلة البوم، ص ٢٨ – كم مرة ينتهي أمرنا، ص ٣٦ – إلى آخره وإلى آخره، ص ٤٠ – كالنون في سورة الرحمان، ص ٧٣ – تعالم حورية، ص ٧٧...

٩- في البعيد – فوق الحديد – لنعود – رحيل الجنود.

١٠- Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, Dubois et autres, Larousse, ١٩٩٤, p. ٣٠٥.

١١- الكتاب المقدس، الطبعة الخامسة ،١٩٩٤، ص ١٠٦١.

١٢- و"قانا" مدينة قديمة في الجليل ظهرت فيها أول معجزة للمسيح بتحويله الماء إلى نبيذ فيعرس. انظر: الموسوعة العربية الميسرة، دار نهضة لبنان للطبع والنشر، بيروت ١٩٨٦، المجلد الثاني ص ١٣٦٣.

– ملحق قصيدة "أبد الصبار" لمحمود درويش

إلى أين تأخذني يا أبتي؟

إلى جهة الريح يا ولدي...

وهما يخرجان من السهل، حيث

أقام جنود بونابرت تلا لرصد

الظلال على سور عكا القديم–

يقول أب لابنه: لا تخف. لا

تخف من أزيز الرصاص ! التصق

بالتراب لتنجو ! ستنجو ونعلو على

جبل في الشمال، ونرجع حين

يعود الجنود إلى أهلهم في البعيد

ومن يسكن البيت من بعدنا يا أبي؟

سيبقى على حاله مثلما كان يا ولدي !

تحسس مفتاحه مثلما يتحسس

أعضاءه، واطمأن. وقال له

وهما يعبران سياجا من الشوك:

يا ابني تذكر ! هنا صلب الإنجليز

أباك على شوك صبارة ليلتين

ولم يعترف أبدا

سوف تكبر يا

ابني، وتروي لمن يرثون بنادقهم

سيرة الدم فوق الحديد...

لماذا تركت الحصان وحيدا؟

لكي يؤنس البيت يا ولدي،

فالبيوت تموت إذا غاب سكانها...

تفتح الأبدية أبوابها، من بعيد،

لسيارة الليل. تعوي ذئاب

البراري على قمر خائف. ويقول

أب لابنه: كن قويا كجدك !

وأصعد معي تلة السنديان الأخيرة

يا ابني، تذكر: هنا وقع الإنكشاري

عن بغلة الحرب، فاصمد معي

لنعود

متى يا أبي

غدا. ربما بعد يومين يا ابني !

وكان غد طائش يمضغ الريح

خلفها في ليالي الشتاء الطويلة.

وكان جنود يهوشع بن نون يبنون

قلعتهم من حجارة بيتهما. وهما

يلهثان على درب قانا : هنا

مر سيدنا ذات يوم. هنا

جعل الماء خمرا. وقال كلاما

كثيرا عن الحب، يا ابني تذكر

غدا. وتذكر قلاعا صليبية

قضمتها حشائش نيسان بعد

رحيل الجنود...